الحضور المكي في الذاكرة الشنقيطية
(قراءة في رحلات الحج ومدونات القريض)

الدكتور/ محمذن بن أحمد بن المحبوب
المفتشية العامة للتهذيب الوطني
قسم اللغة العربية
انواكشوط

إننا في هذه الصفحات نود لو نعرض لجانب من تأثيرات مكة المكرمة وحضورها في الثقافة الشنقيطية، فهي أم القرى ومبتدأ الوحي والإيمان وعاصمة الفكر والثقافة. وعلى الخصوص فإننا سنتناول الحضور المكي في الذاكرة الشنقيطية محاورين العنوان الآتي: " الحضور المكي في الذاكرة الشنقيطية". وسنعرض لهذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور أولها يتناول استنطاق العنوان وفضل مكة ومكانتها الدينية، وثانيهما يسلط الضوء على ارتباط الشناقطة بمكة واشتياقهم إلى أرضها. أما ثالث المحاور فإنه يروم الكشف عن مكانة مكة في الرحلات الشنقيطية. فماذا عن هذه المحاور؟ وكيف كان عاقبة إسهام القوم فيها؟ وهل جاءوا من الأمر جديدا فأبدعوا وأطرفوا أم أنهم انساقوا وراء المكرور المعاد فأكثروا من الرتابة وأسرفوا؟.

ذلك ما نروم الإجابة عنه عبر هذه الصفحات واقفين أولا مع المحددات الأولية التي تروم استنطاق العنوان وكلماته وتبيان فضل البلد الحرام وإبراز سماته.

أولا: المحددات الأولية:

وخلال هذه المحددات سنتناول ثلاث نقاط، أولها تعرض لاستنطاق العنوان، وثانيتها تقف يسيرا مع مكة مقدمة بطاقة تعريفها منبهة إلى فضلها ومكانتها المتميزة في الثقافة العربية الإسلامية، وثالثتها تنظر إليها من زاوية نبوية،إذ هي مولد النبي صلى الله عليه وسلم و مبعثه ومنطلق هجرته.

1- استنطاق العنوان:

يتألف هذا العنوان من تركيبين نعتيين ربطت بينها أداة الجر "في" أولهما "الحضور المكي" فالحضور: مصدر "حضر الغائب يحضر حضورا إذا قدم، وحضر الأمر إذا جاء."[1] والمكي نسبة إلى مكة قال في اللسان: " مكة معروفة: البلد الحرام قيل سميت بذلك لقلة مائها

---

[1]- إبراهيم أنيس: المعجم الوسيط، القاهرة 1972 (180/1)

وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها أي يستخرجونه وقيل سميت بذلك لأنها تمك من ظلم فيها وألحد أي تهلكه قال الراجز:

مكة مكي الفاجرين مكا و لا تمكى منحجا و عكا"[1]

وقيل سميت بذلك لأنها تمك العظم مما ينال قاصدها من المشقة من قولهم مككت العظم إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصل ضرع أمه و امتكه إذا امتص كل ما فيه من اللبن و شربه."[2] وذهب بعضهم إلى أنها إنما سميت بذلك لأنها تمك الذنوب أي تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه. ولا تعارض بين هذه المعاني، فمكة حرم مقدس بساحته يتجاوز عن الذنب ويدفع الظلم، وهي مع ذلك لا تبلغ إلا بشق الأنفس.

وقد ذهب بعضهم إلى التفريق بين مكة وبكة منتهيا إلى أن مكة تطلق على البلد كله وبكة خاصة بما بين الجبلين «فبكة موضع البيت ومكة سائر البلد(...) وقيل بكة المسجد ومكة الحرم كله تدخل فيه البيوت.و قال مجاهد: بكة هي مكة فالميم على هذا مبدلة من الباء كما قالوا طين لازم ولازب قاله الضحاك ثم قيل بكة مشتقة من البك وهو الازدحام وتباك القوم ازدحموا، سميت بكة لازدحام الناس في موضع طوافهم والبك دق العنق قيل سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم قال عبد الله بن الزبير لم يقصدها جبار قط بسوء إلا قصمه الله عز وجل"[3] وقد عزز عبد الرحمن الثعالبي هذا الرأي في تفسيره الجواهر الحسان مستشهدا بكلام أئمة الفقه من المالكية يقول:" قال مالك في سماع بن القاسم من العتبية بكة موضع البيت ومكة غيره من المواضع(...) قال ابن رشد في البيان أرى أن مالكا أخذ ذلك من كتاب الله عز وجل قال تعالى في بكة "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا" وهو إنما وضع في موضعه الذي وضع فيه لا في ما سواه من القرية. وقال في مكة "وهو الذي كف أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم"(الفتح/24) ذلك إنما كان في القرية لا في موضع البيت"[4].

أما التركيب النعتي الثاني فهو "الذاكرة الشنقيطية" فالذاكرة لغة هي "قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب السابقة واستعادتها."[5] والشنقيطية جاءت لتفيد انتساب هذه الذاكرة إلى بلاد شنقيط وهذه التسمية علم على مدينة قديمة تقع في آدرار بالشمال من الأراضي الموريتانية.

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، دار الصادر دون تاريخ مادة مك

[2] - القرطبي: الجامع في أحكام القرآن، طبعة مناهل العرفان، بيروت، 138/4.

[3]- المرجع السابق والصفحة

[4]- الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، بيروت ط1، 1997،(271/1 – 272).

[5]- إبراهيم أنيس: المعجم الوسيط، القاهرة 1972 (180/1).

وتعني بالصنهاجية "عيون الخيل". وكانت هذه المدينة مصدر إشعاع ثقافي كبير إذ تمثل منطلق ركب الحجيج فيؤمها من حولها من أهل القرى وابتداء من القرن الحادي عشر أصبحت هذه التسمية تطلق على المجال الجغرافي المعروف اليوم بموريتانيا، وهي تسمية عريقة أصيلة تحمل بعدا تاريخيا ومحمولا حضاريا يحيل على الدفء المعرفي والمخزون الثقافي. والمقصود من العنوان عموما هو التنبيه إلى تأثير هذا المكان المقدس في نفوس الشناقطة وحضوره الفاعل في أذهانهم. وقبل البدء في الحديث عن هذا الحضور الذي يرتكز على الحرم المكي نشير إلى أن الحرمين الشريفين قرينان لا ينفصلان، إذ لا يذكر أحدهما إلا استلزم ذلك ذكر الآخر مما يجعلهما للأمة الإسلامية كالرمز والعنوان فهما في الحقيقة صنوان لا ينفصلان إذ هما في الشرف والعلو عدلا عير وفرسا رهان فتناول أحدهما يستلزم بالضرورة تناول قرينه. ورغم هذا التلازم والارتباط الوثيق فإننا نستجيز لأنفسنا في هذه السطور نوعا من الفصل المنهجي بين هذين الحرمين معولين هنا على إبراز الحضور المكي في الثقافة الشنقيطية، مرجئين الحضور المدني إلى مناسبة أخرى.

2- مكة معدن الفضل و موئله

قبل الحديث عن مكانة مكة نشير إلى أن لها أسماء عديدة وردت منها ثمانية في القرآن هي: مكة[1] وبكة[2] وأم القرى[3] والبلدة[4] والبلد[5] ومعاد[6] والوادي[7] والقرية[8].

وأورد صاحب منائح الكرم ما يقارب الخمسين من الأسماء، فمن أسمائها صلاح وكوثى والساسة والناسة والحرم وبرة والمسجد الحرام وأم رحم والحاطمة وقد أفرد صاحب القاموس

---

[1]- قال تعالى وهو الذي كف أيديهم عنكم و أيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم(الفتح/24).

[2]- قال تعالى إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين(آل عمران/97).

[3]- قال تعالى "لتنذر أم القرى ومن حولها" الأنعام/92، يعني مكة سميت بذلك لأنها أقدم الأرض وقبلة الأمة وأعظم القرى وبها بيت الله الحرام. ولما جرت العادة أن بلد الملك وبيته مقدمان على جميع الأماكن سمي أما لأن الأم مقدمة.

[4]- قال تعالى إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين(النمل/93).

[5]- قال تعالى لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بها البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد(البلد/1)

[6]- – قال تعالى إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد(القصص/84)

[7]- قال تعالى ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم(إبراهيم/38)

[8]- قال تعالى ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة (النحل/111).

لأسماء مكة جزءا كاملا. وكثرة الأسماء كما هو معلوم تدل على رفعة المسمى، قال أبو البقاء بن الضياء[1].

لمكة أسماء ثلاثون عددت ... ومن بعد ذاك اثنان منها اسم مكة

وما كثرة الأسماء إلا لفضلها ... حباها بها الرحمن من أجل كعبة

ومكة بلدة عظيمة مستطيلة ذات شعاب واسعة ولها مبتدأ ونهايات فمبتداها المعلاة[2] وهي المقبرة الشهيرة ومنتهاها من جانب جدة الشبيكة[3] وقد كرم الله مكة وشرفها إذ جعل فيها البيت الحرام ودعا لها إبراهيم عليه السلام بالأمن من الخوف والجوع قال تعالى على لسان إبراهيم «رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات»(البقرة/ 125) وقال جل من قائل «رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام»(إبراهيم/37) وقال جل شأنه «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (إبراهيم/38).

ويكفيها فضلا أنها حرم الله، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" لما عقرت ثمود الناقة أخذتهم الصيحة فلم يبق تحت أديم السماء منهم أحد إلا أهلكته إلا رجلا واحدا كان في حرم الله عز وجل قالوا من هو يا رسول الله قال: أبو رغال أبو ثقيف فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه"[4] ولما أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وقف على الحزورة وقال:" إني أعلم إنك أحب البلاد إلي وإنك أحب أرض الله إلى الله ولولا أن المشركين أخرجوني منك ما خرجت"[5]. وقالت عائشة رضي الله عنها "لولا الهجرة لسكنت مكة فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة

---

[1]- علي بن تاج الدين السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق د. جميل عبد الله محمد المصري 1998 جامعة أم القرى ط1. ومن أراد أن يطلع على هذه الأبيات كاملة وعلى هذه الأسماء فلينظر(214/1) من هذا الكتاب.

[2]- وهي القسم العلوي من مكة المكرمة وغالبا ما يطلق عليه مقبرة مكة التي صارت تعرف بالمعلاة لوقوعها في هذا الحي.

[3]- موضع بين الزاهرة ومكة وهي الآن من أحياء مكة المكرمة تمتد من المسجد الحرام غربا إلى حارة الباب.

[4]- أخرجه احمد و مسلم أبو حاتم وأورده صاحب القرى لقاصد أم القرى، ص 647.

[5]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت د.ت(181/5 وما بعدها) وهذا الحديث أخرجه النسائي والترمذي وقال حديث حسن صحيح ذكر ذلك صاحب القرى ص 647.

ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة. ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة."[1] وقال عبد الله بن أم مكتوم وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف[2]:

يا حبذا مكة مـــن واد	أرض بها أهلي وعوادي
أرض بها ترسخ أوتادي	أرض بها أمشي بلا هاد

وقال حرب بن أمية ينوه بالحرم المكي ويذكر خصوصيته الأمنية ورخاءه الاقتصادي وتميز قريش وحضورهم بمساحته[3]:

أبا مطر هلم إلـــى صلاح	فيكفيك الندامى مـــن قريش
وتنزل بلدة عزت قديمـــا	وتامن أن يزروك رب جيش
وتامن أن يزروك رب جيش	أبا مطرد هديت بخير عيش

ومن شرف مكة أنها لا يدخلها الدجال وأهلها أهل الله عز وجل فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة قال له يا عتاب أتدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله تعالى فاستوصى بهم خيرا»[4] وجعل الزمخشري الإقامة بالحرم المكي أفضل وسيلة لتربية النفس وترويضها ودفعها إلى الخير وتحريضها قال في كشافه (فلم نجد(...)أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة ،أجمع للقلب المنقلب وأضم للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الدنيوي في الجملة من سكن حرم الله و جوار بيته فلله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ورزق من الصبر وأوزع من الشكر»[5] وقد جاء في بعض الآثار أن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا و أم القرى أولها الكعبة وبكة حول مكة وحول مكة الحرم وحول الحرم الدنيا.وللشهاب الخفاجي(ت.1069 هـ)[6].

بمكة لي غناء ليس يغنى	جوار الله والبيت المعظـــم
ففيه كيمياء سعادة لـــي	ظفرت بها من الحجر المكرم

---

[1]- المرجع السابق والصفحة.

[2]- المرجع السابق والصفحة

[3]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، م.س 185/5.

[4]- الحافظ أحمد بن عبد الله محب الدين الطبري: القرى لقاصد أم القرى،ط2 . 1970. ص.649

[5]- علي بن تاج الدين السنجاري: منائح الكرم م.س.242/1.

[6]- المرجع السابق والصفحة.

ولبعضهم مرغبا في زيارة الحرم المكي لما يفوز به مرتاده من السعادة والاطمئنان والتجاوز عن الذنب وزيادة الإيمان[1].

هنيئا لمن زار بيت التقي ... وحط عن النفس أوزارها
فإن السعادة مضمـــونة ... لمن جاء مكة أو زارها

ولا ننسى في هذا المقام أن نعرج يسيرا على منظومة محمد مولود بن اعشممت الشنقيطي لأبنية الكعبة مبينا أنها مما علم من الدين بالضرورة فيلزم معرفتها لأنها من أسس الدين ومنطلقاته. وأول من بنى الكعبة للملائكة ثم آدم عليه السلام ثم للخليل إبراهيم وابنه إسماعيل ثم جرهم ثم قريش ثم عبد الله بن الزبير ثم الحجاج بن يوسف وهذا ما أوضحه الناظم قائلا[2]:

يقول مولود بلـــي محمدا ... عفا الإله عـــــن ذنوبه غدا
هذا وجهل ما من الدين علم ... ضرورة كفـــــر وذا نظم مهم
لأنـــــه للدين كالأساس ... للدار أو كالراس من ذي الراس
أبياته قليلة إذا تلـــــي ... لكنها ضأن كمـــــا في المثل
أبنية الكعبة في مـــا شهره ... حماد سبعة وقيـــــل عشره
أولها الأملاك ثـــم آدم ... ثم للخليل وابنـــــه فجرهم
ثم قريش بعدهم نجل الزبير ... عبد الإله ثـــم حجاج المبير

ثم تعرض لأصل البيت الحرام ومبتدأ أمره مشيرا إلى أن الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم قال لملائكته «إني جاعل في الأرض خليفة» قالت الملائكة «قالوا أتجعل بها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» فغضب عليهم فعاذوا بعرشه فطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى رضي عنهم وقال ابنوا لي بيتا في الأرض يغفر لكل من طاف به مستغفرا فبنوا البيت الحرام يقول[3]:

وأصـــــل بيت ربنا الحـــــرام ... أن الإله منـــــــزل الأحكام
حـــين أراد خلقـــه لآدمـــــا ... فـــي الأرض أخبر ملائك السما
قالوا أتجعل فيها مـــــن يفسدون ... قال لهم أعلم مـــــا لا تعلمون
فاستغفروا واجعلوا العرش حـــرم ... فغفـــر الله بذلك لهـــــــم

---

[1]- المرجع السابق والصفحة.
[2]- أحمد بن الأمين:الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.
[3]- المرجع السابق

فســـألهم فـــي الأرض بيتا يغفر ... لكـــــــل طائف بـــــه يستغفر
فامتثلوا وبنـــــوا البيت الحرام ... بمكة مولـــــد أفضل الأنام
بعثه الله بـــــــــها عند تمام ... إلى جميع الخلق أربعيـــن عام
والعشر والثلاث فيـــــها مكثا ... من السنين بعدمـــــا قد بعثا
يدعو إلـــــــى مجرد الإسلام ... لا غيره مـــن سائر الأحكـــام
إلا الصـــــــــلاة فرضت بسنة ... في ليلة الإسراء قبـــل الهجرة
صلاتنا وحجنا إلـــــــيه لا ... إلى النبي المصطفي قـــد جعلا
وليس مـــن رجع من دون النبي ... ما زاره فـــــي حجه بالمذنب
لكـــــــن زيارة قويم السنن ... نبينا مـــــــن واجبات السنن

ويختم ابياته بما أشار إليه أهل السيرة من أن الله سبحانه وتعالى لما أهبط آدم إلى موضع الكعبة اشتاق إلى الجنة فأنزل الله إليه الحجر الأسود وهو ياقوتة من يواقيت الجنة فأخذه وضمه إليه استئناسا به وفي الحديث " نزل الحجر من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته الخطايا خطايا ابن آدم ومصافحة أهل الشرك فلولا ذلك ما مسه ذو عاهة إلا برئ" وفي الخبر الحجر الأسود يمين الله في الأرض من مسه فإنما يبايع الله عز وجل فمن صافحه كان له عند الله عهد كما أن الملوك تعطي العهد بالمصافحة ولله المثل الأعلى يقول[1]:

وعند مـــــا من الجنان نزلا ... آدم واشتاق إليـــــــها أنزلا
رب الورى الحجر الاسعد له ... يونسه لمـــــــا اعتراه الوله
وكان فـــــي الكعبـــة كالمرايا ... وسودت بياضـــه الخطايـــا
ومرتين زايل البيت العتـــيق ... وضيبوه بعـــد كسر المنجنيق
وجعلوا استلامـــــــه مبايعه ... ورفعه جبريل قبـــــل الواقعه
من أعظم الاشراط ذات الشأن ... فينتهي به إلـــــــى الجنـــان

3- مكة مبعث النبي ومولده:

لقد ذهب أهل السير إلى ضرورة الاطلاع على تفاصيل سيرته صلى الله عليه وسلم مؤكدين أن الإيمان لا يكمل إلا باليقين على أن مكة منطلق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومولده فـ «قالوا» لا يكمل الإيمان إلا بمعرفة نسبه وكونه قرشيا تهاميا حجازيا مكي المولد والمبعث مدني المهاجر والروضة. ويقبح بالكريم ولو جاهلا جهل كونه ولد عام الفيل بعد قدومه

---

[1]- المرجع السابق.

بخمسين يوما وبعث على تمام الأربعين سنة ومكث عشر سنين يدعو إلى مجرد التوحيد»[1]. وهذا ما أكده القلقشندي في كتابه نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب منوها بعلم الأنساب معليا من قدره لما يترتب عليه من الأحكام الشرعية إذ يبصر بأصل النبي صلى الله عليه وسلم و أرومته الكريمة ومنبته الطيب يقول: «لا خفاء أن المعرفة بعلم الأنساب من الأمور المطلوبة والمعارف المندوبة لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية والمعالم الدينية فقد وردت الشريعة المطهرة باعتبارها في مواضع منها العلم بنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه النبي القرشي الهاشمي الذي كان بمكة مولده وهاجر منها إلى المدينة فأنه لا بد لصحة الإيمان من معرفة ذلك، ولا يعذر مسلم في الجهل وناهيك بذلك»[2] وقد نظم أحد الشناقطة رأي القلقشندي في رجز راقص يعتبر تحفة نادرة عند الأمهات في بعض مناطق البلاد فكثير ما رددنه على آذان الصبية بكرة وعشيا تعوذة وتحصنا ورغبة في أن يعلق بالذاكرة، ويحصل في الصدور والنظم كما هو واضح من مضمونه يربط الإيمان بمعرفة السلالة النبوية والمولد المكي والمهاجر المدني يقول[3]:

القلقشندي علمنـــا أن النبي ... من هاشم ومـــن قريش نخبي
وأنه لطيبة قـــــد هاجرا ... مـــن مكة ومكة أم القـــرى
مشترط في صحة الإيمان ... في مهرق التوحيـــد لاتجبنان

ومن مظاهر الحضور المكي في الثقافة الشنقيطية ذلك الرجز المتداغم المنظوم على شكل موشح وغالبا ما ينشأ الأطفال على حفظه وتعلمه فكثيرا ما رددته الأمهات في بعض مناطق الوطن على مسامع النشء والصغار وهذا الرجز تكررت به كلمة "مكة" ثلاث مرات لأنها مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومسراه ومبعثه وحضرت به: المدينة المنورة مرة واحدة لأنها محل قبره صلى الله عليه وسلم وينتهي هذا الموشح بالتنبيه إلى أن معرفة مكان مولد الرسول صلى عليه وسلم ومبعثه ومدفنه من الأمور اللازم تعلمها فكأنها داخلة في ما علم من الدين بالضرورة فجهلها يزري بالمروءة وينقص الإيمان وربما أفضي إنكارها إلى الكفر الصريح فيلزم ولي الصبي إذن أن يعلمه هذه الأمور وينشئه على تعهدها يقول[4]:

مولده بمكة إسراؤه بـــمكـــــة ... وبـــعثته بـــمكـــــة ... وقـــبـــره بيثرب

---

[1]- حماد المجلسي: شرح عمود النسب، دار الفتح للطباعة والنشر،الشارقة 2004، 31/1.

[2]- احمد القلقشندي: نهاية الأرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط2، 1980

[3]- مريم بنت أحمدو: الشناقطة و تأديب الأطفال،المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية 2002-2003 رسالة تخرج.ص 63.

[4]- المرجع السابق.ص.68

إنكـــــــار ذا كفر جلـــي من واجب على الولي تعليم هذا للصبي

ومن هنا نعلم أن مكة عرفت على مر التاريخ مكانة متميزة فمنذ العهد الجاهلي وهي تحظى باحترام كبير،إذ كان سكانها يأمنون والناس بين متخطف ومنهوب كما كانوا بمنجاة من الضرائب والإتاوات،:« فأهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ودانت لها خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم وهم بعد أعز العرب يتأمرون على العرب قاطبة.»[1]

وأكثر من ذلك ذهب بعض المستشرقين إلى أن هذا البد الأمين كان في الجاهلية جمهورية فهو لم يعد مجرد اتحاد قبائل ارتبط بعضها ببعض بل كان به ملأ وهو مجلس شيوخ مصغر لا يدخله إلا من بلغ أربعين سنة من قريش البطاح وهم هاشم وأمية ومخزوم وجمح وسهم وتيم وعدي وأسد ونوفل وزهرة.وكان هؤلاء الشيوخ ينظرون في شؤون مكة الدينية والتجارية.وذلك ما يدل على ارتفاع شأن هذه البلدة في الجاهلية فقد كانت عاصمة الجزيرة العربية، واتخذت عكاظ سوقا يلتقي فيه الخطباء والشعراء. وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية فضلا عن ثرائها ومكانتها التجارية والدينية[2] ولما جاء الإسلام ازدادت هذه المكانة قوة ومتانة مع ما رسخ في الواقع من فضل هذا البلد إذ ربط به إحدى الشعائر الإسلامية الأساسية التي تؤدى في كل سنة وهذا ما يجعل مكة موئلا لمؤتمر إسلامي كبير ينعقد كل عام.

ثانيا: شوقيات شعرية:

إن المسلم بحكم إيمانه بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم له تعلق فطري بالبيت الحرام وأم القرى، وهذا التعلق يزداد كلما ابتعدت الديار وشط المزار، ورقت النفوس واستحضرت الأوزار. وذلك ما جعل الشناقطة الذين انتبذوا من البيت مكانا قصيا يزدادون بالحرم تعلقا، وإلى البيت حنينا، فألجأهم البعد الجغرافي إلى الإكثار من الشوق والحنين فاشتد ارتباطهم بتلك البقاع الطاهرات، فتضاعف نحوها منهم الظعن والارتحال، ولم يتخلف عن ذلك إلا من خانه الجهد أو انقطع به السبيل، فكأن حال غير المرتحلين منهم ينشد قول الشاعر:

يا رحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا علـــى عذر وعن قدر ومن أقام على عـــــذر فقد راحا

---

[1]- شوقي ضيف: الشعر والغناء في مكة، ص.150.

[2]- شوقي ضيف: الغزل والغناء في مكة، ص.236.

وخلال هذا المحور سنعرض لنقطتين أولاهما تتناول استنطاق المقاطع الشعرية التي نظمت في الشوق إلى الحج والمناسك، وثانيتهما تحاول أن تنظر إلى المشاعر المقدسة على أنها ملهمات أدبية تساعد الشعراء على الإبداع فماذا عن هاتين النقطتين:

أ- استحضار الأماكن والمقدسات:

وضمن هذا الاستحضار سنعرض لضربين من الشوقيات الشنقيطية أحدهما يعني أصحابه بالشوق إلى الحرم باعتباره غرضا شعريا تخصص له الدولوين والقصائد وثانيهما يتناول هذه المشوقات عرضا،إذ تحضر في ثنايا النص أو في بعض أجزائه فقط. فماذا عن هذين الضربين؟

1- الاستحضار الواضح المرتسم:

ونقصد به الحضور المتميز لمناسك الحج في مدونات الشعراء، وهو حضور يعبر عن اشتياق الشناقطة إلى مكة ومقدساتها وفي هذا السياق سنقف مع عدد من شعراء القوم بادئينهم بمحمدو بن محمدي العلوي(ت.1272هـ) الذي أبدع قافية رائعة استهلها بالدعوة إلى الصبر مجردا من نفسه مخاطبا يأمره بالتجلد أمام لحظات البين والفراق التي تذوب لها القلوب وتسيل منها الدموع، مغريا بإشحاذ العزائم وتقويتها وتكبيب صراط أخي الهوينا وتنحيتها إذ تصد عن سبيل الحج. ويشبط من العزائم.وإثر ذلك يسترسل في وصف المطية التي سيختار لرحلته مفضلا أن تكون أحد الجمال العتاق أو إحدى النوق "الكوم: التي تسابق الحمر الوحشية وتبارى الريح مختزلة المسافات طاوية بسيط الصحراء طي البطاق يقول[1]:

تجـــلد جـهد نفسك للفراق	وكفكف غـرب سافحة المـآق
وجرد مـــن عزيمك ما يوازي	مترات المهـنـدة الرقـــــاق
ونكب عن مقال أخي الهوينا	وعنها فـهي خاســرة الصفاق
وعـــــــن باك وباكية أراقا	دموعـا ليس ولكفـــها بـراق
إلى البيت العتيق بنص إحـدى	عتاق الكوم أو أحـــــد العتاق
بنص شملة تعـدو بعالـــــى	قراها عـــــــدو منفرد لهاق
تبارى الريح جافلـــــة وتطوى	عريضات الفلا طي البطـــاق

وبعد هذه المقدمة يصعد نداء أخويا آملا من خالقه أن يمن عليه بملاقاة الأحبة بعد الفراق، مؤكدا أنه ولي وجهه شطر المسجد الحرام و أحال صفحة خده عن أرض قومه عسى أن يخفف ما بنفسه من الغرام،فهو مسكون بمحبة الأماكن المقدسة فظمؤه إلى ماء "زمزم" و صفاء نفسه مرتبط بالوقوف على "الصفا" ومناه أن يقيم بالمحصب من "منى". ثم يأخذ في توجيه ركب الحجيج،

---

[1]- احمد بن الأمين: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصر 1961 ص 52.

مسديا إليهم جملة من النصائح تدعوهم إلى الاعتصام بحبل الله، والصبر على السهر ومجافاة الجنوب عن المضاجع وخوض الهواجر أثناء هذه الرحلة البرية الشاقة يقول[1]:

أأحبابي أعـــــــاد الله منـــي ... ومنكـم بعـــــد فرقتنا التلاقـــي
إلى ارض الحجاز أحلـــت عنكم ... صفيحة وجه خـــدي واشتيـــاقي
سلوت أحبتـــــي واشتاق قلـبي ... بتلك الأرض لا نجـل الحـــــداق
بزمزم قلتي تغلي فمن لـــــــي ... بكـــــــأس من مدامتـها دهاق
صفا نفسي الصفـــا ومنى مناها ... وبالجمرات قلبـي ذو احتـــــراق
ألا يا ركب حقق مـــــا رجوتم ... علـــــي حـسن التلاطف والوفاق
تقوا بالله واعتصمـــوا وسيروا ... خفافا فالمـــــــــهمين خير واق
وخوضوا فـــي الهواجر كل آل ... طما والشمس لافظـــــة البصاق

ويختم الشاعر نصه مبديا رغبته في أن يكمل الحج فيتتبع المناسك مطوفا بالبيت الحرام سبعا،وساعيا مسرعا في جميع المواقف متسابقا مع الحجيج واقفا بعرفات والمشعر الحرام،راميا الجمرات ذاكرا الله في الأيام المعدودات غير متعجل لينطق إلى طيبة حيث تطيب النفس وتكتمل الزيارة بموافاة الرسول صلى الله عليه وسلم عنوان الفوز والفلاح، فطيبة تزهوا وتفوق المدن والقرى إذ تتيه على شام المواطن والعراق وتتوج الأبيات بصلاة نبوية بديعة تعتمد حسن الخاتمة في أسلوب من الدوام والاستمرار فهي تدوم بدوام تلبية الحاج وتلاقي الأحبة بعد الفراق يقول:

إلى حيث النجاح وحيث يغدو ... أسير الذنب مفكـوك الوثاق
وحيث نطوف سبعا ثم نسعى ... ونسرع للمواقف في استباق
إلى حيث النجاح وحيث يغدو ... ونأوى للمحـــــلق والحلاق
ونرجع للطواف وقـد أرقنا ... دماء المشعرات مـــن النياق
ونمضي يومنا بمنى فنقضي ... بـــــــلا عجل ليالينا البواقي
فإن طبنـــا بطيبتنا نفوســـــا ... تنادي ـــــنا لطيبـــة بانطلاق
هي الدار التي شرفت وتاهت ... على شام المواطـــن والعـــراق
على مـــن صاغ منصبه حلاها ... وساق لها العلا كـــل المســـاق
صلاة الله مـــــــا لبى حجيج ... ومـــــا حم اللقا عقب الفـــراق

---

[1]- المرجع السابق ص.53.

ونعرج يسيرا على البشير بن امباريكي (ت.1354هـ) الذي كان كثير الشوق إلى الحرمين الشريفين. وقد اتخذ في إحدى شوقياته نموذجا إبداعيا جديدا يعتمد معارضة القديم حيث احتفظ بالبنيات والمباني وجدد في الدلالات والمعاني. وهو بهذا الصنيع يحاور النصوص الجاهلية مبقيا على أسلوبها محاولا أن يشحنه بمضمون إسلامي رفيع، فنراه يحاور قصيدة النابغة الذبياني "يا دار مية" مضمنا بعض أشطارها في نصه، محولا مقدمتها الغزلية إلى مقدمة شوقية، معبرا عن حنينه إلى ربوع مكة وأكناف طيبة، آمرا قومه بشد الرحال إلى الحرم، ناصحا بإخلاص العبادة لله، ناظما مضمون سورة الإخلاص،داعيا إلى العض بالنواجذ على السنة، حاثا على ترسم خطوات الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هو سيد ولد آدم ولباب صفوة الأنام يقول[1]:

أشتاق مكة بين الغيل والسعد ... لا "دار مية بالعلياء فالسند

وجدي حنيني إلى دور بطيبة قد ... أقوت وطال عليها سالف الأبد

يا صاح فاعد إلى تلك الربوع ورح ... "ولم القعود على عيرانة أجد

وانهض بعزمك في نهج الرسول وسر ... نحو "الجليل على مستأنس وحد

واخلص لمولاك لا تشرك به أحدا ... فإن مولاك لم يولد ولم يلد

ولتتصل بهدى الهادي فإن له ... "فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد

هو الرسول الذي ما مثله أحد ... "ولا أحاشي من الأقوام من أحد"

وأكثر من ذلك يبدع الرجل رائية في الشوق والحنين استهلها بمطلع مصرع يعتمد الجناس التام بين "أو زارا" و "أوزارا" مناديا ركب الحجيج أن يردد على مسامعه ذكر الأماكن المقدسة،معددا منها جملة كالحطيم والحجون والبطحاء والبيت الحرام وزمزم والصفا ومنى وغيرها يقول[2]:

سائل بطيبة ركبا حط أو زارا ... ففاز بالوصل لما حط أوزارا

يا أيها الركب خبر هائما دنفا ... قد طال مافتئت من مقلك أخبار

واذكر حجونا وبطحاء لحطيم وصف ... ببتا حراما وأركانا وأستارا

واذكر حراءا لنا والمأزمين ولا ... تنس التقاطكم للرمي أحجارا

عرف لنا عرفات في مواقفها ... فلمست أسأم في الأخبار تكرارا

واذكر مسيركم نحو الحبيب لقد ... طابت أحاديث من لطيبة سارا

1- محمد فاضل بن أحمدو: تحقيق ديوان البشير بن امباريكي، جامعة انواكشوط، 1990 ص.40.

1- المرجع السابق. ص.45 – 47.

وجاء ماء العينين بن العتيق ليسطر رئعته في الشوق والحنين إلى الحرمين مفتتحا نصه بمقدمة طللية اتخذ منها سلما للحديث عن أرض الحجاز التي استباحت حريم صبره ، واستمالت عليه فؤاده،مما جعل النفس تنازعه نحوها كثيرا وتدفعه إلى إعمال العيس نحوها،مستمتعا باستحضار صورتها في الذهن ،واسترجاع أخبارها باللسان. فكأن الأشواق تشتد بأعماقه حتى تدني إليه المقدسات، وتريه البعيد قريبا

فيتضاعف ضيقه بالمعوقات التي تمنع الزيارة وتحول دون الارتحال يقول[1]:

ألا مـــن لعين عز وجدا هجودها	وهـــــان عليها بالمدامع جودها
تفيض لذكـــــر الفيضتين بعبرة	كأنـــــي إذا كفكفتها أستزيدها
فأحبب بها أرضا إلى وشد مـــــا	تشوقنـــي أن شاقت القلب غيدها
ولكن هوى أرض الحجاز استمالني	فلم يشفيني ذا اليوم إلا شهودها
وليس كدائي مـــــن غرام كدائها	وقد كـــــاد يؤدى بالفؤاد كديدها
فـــــخذ نحوها باليعملات فإنما	لطيبة عندي يستطاب وخـــيدها
تخيلـــــها الأشواق لـــي فأخالها	تدانى على شحط المزار بعيدها
تواعدني الهمـــات أن سأزورها	وأين من الإنجاز تجرى وعودها
مزار البقاع الطاهـــــرات توده	حشاشة قلبي والخطـــوب تذودها
فحتام تثنيها الذوائب والنـــــوى	بـــــرح الجوى يستاقها ويقودها

ونبلغ إلى أبي مدين بن الشيخ أحمدو بن اسليمان الديماني (ت.1363هـــ) الذي عرف بشوقياته الرفيعة فله همزية أعرب فيها عن مستوى عال من الشوق إلى الأماكن المقدسة مستبعدا شفاء ما ألم به من الغرام ما لم تبلغ نفسه إلى الحرمين الشريفين، فدعاه ذلك إلى إرقال العيس نحو الحرم، ملتمسا بأكنافه بلوغ الآمال والرغائب، مترددا في تلك البقاع الطيبة من المقام إلى باب السلام إلى أرجاء مكة حيث تتنزل الرحمات بتلك المنازل النبوية الكريمة دون أن ينسي التماس الركن وتقبيل الحجر،متضلعا من ماء زمزم،مطوفا بالبيت العتيق،وساعيا بين الصفا والمروة ، خاتما حجه بزيارة الروضة الشريفة يقول[2]:

رقت لرقة قلبي كل حوراء	وأرق البـــــرق تبريحا بأحشائي
قلب القلب تقليب الزمان وما	من صرفه عاق عن وصل الأحباء
كيف الدواء لداء لا يفارقنـــي	أم كيف يرجـــى شفائي بعد إشفائي

2- محمد المختار ولد اباه: الشعر وشعراء في موريتانيا، الدار التونسية للتوزيع والنشر 1987، ص212.

1- المرجع السابق.

عوجوا لمطي إلـى لبيت لعتيق فقي ... بلوغه نيل آمـــالي وأهـــوائي
إلى لمقام إلى باب السلام إلى ... مـــا حول مكة من خبت وبطـــحاء
واستعملوا شربة من ماء زمزم كي ... يمحو بها الله عنـا كـــل حوباء
لوذوا بساحة ذاك البيت إن له ... فضلا تواتر عـــــن آي وأنبـاء
بيت إلى الله لا للخلق نسبته ... يكفيه ذلك مـــــن مدح وإطراء

ويبلغ الحضور المكي في الشوقيات الشنقيطية أعلى مستوياته مع الشاعر محمد يحي بن سيد احمد المجلسي الذي استودع ديوانه ثلاث قطع شعرية تعرب عن شوق إلى الحرم شديد،إذ يستهل أولها بالوقوف على بطحاء مكة،منسك الحج، ومأمن الخائف ومأوى الطريد ومولد البشير النذير صلى الله عليه وسلم، فهو أول بلدة مس جلده الشريف ترابها،وحنت إليه جذوعها وأسرابها،فكساها ذلك فضلا عظيما، وأبقى للمسلمين بها ذكريات لا تنسى، ففي هذا الحرم المبارك تزكو النفوس وتغفر الذنوب ويبلغ المطلوب.ويختم الرجل أبياته مثنيا على الله الذي من عليه بزيارة هذا البلد الحرام يقول[2]:

علـــى بطحاء مكة قف وحي ... محـــل ظهور طـــه الأبطحي
محـــل زاده شرفا وفضلا ... طهـــــور الزمزمـــي الهاشمي
محمـــد الذي نال ارتفاعا ... علـــى كـــل العوالم ذي الرقي
ومغـــنى لجد إسماعيل مـــغنى ... خليـــــــل الله والده الحفي
وكـــم فيها لنا من ذكريات ... يفيض معنيها فيـــــض الأتي
محـــل لكعبة الغراء مـــأوى لـــ ... حجيج لذلك الركـــــن المني
نقلم بـــها شعاره وتزكـــو انـــ ... فوس بـــها تنال رضى العلي
تلبي أمـــــر بارئها وتدعو ... بما ترجو مـــــن البر الغني
فتحظـــى بالمؤمل من نداه لـــ ... جزيـــــل الدنيوي والأخروي
فحمد مـــن حبا كرما وفضلا ... زيارتـــها لذا النسك الزكي
ونسأله القبول لمـــا أتينا ... وتثبيتا علـــى النهج السوي
وفوزا بالمنـــى من دارتينا ... بكـــــل مؤمل بهما سني

2- مقابلة مع محمد يحي ولد سيد أحمد بانواكشوط 2004/12/10.

ونقرأ قطعة أخرى تصور لنا بدقة جانبا من لواعج البين والفراغ وتداعيات الوداع كاشفة عن تمزق الشاعر في لحظاته ارتحاله عن مكة لذلك يناديها بكنيتها معتذرا إليها أشد الاعتذار مؤكدا أنه لو يعطى الخيار لما فارقها ولكن لا خيار مع الزمان يقول[1]:

بواعث شوق مكة والدواعي ... تداعت فـــي طوافي للوداع
وإن الذكريات بـــــه تداعت ... ولبت للدواعـــــي كل داع
غداة ركـــابنا للبين زمت ... وركن الوصل آذن بانصداع
فيا أم القرى إن عنك سرنا ... فإنك عندنا أسمـــى البقاع
عليـك تحيتي وإليك شوقي ... بواعثه تداعـــت والدواعي

ونختم هذه القطع بعينية تصرح أن طواف الوداع أثار كوامن البين والفراق واستدعى الشوق إلى بطاح مكة، مما جعل الشاعر يلوح إليها مودعا أهلها، داعيا لهم بالسلامة والحياة والنعيم، مؤكدا أنه إن أخرجته المقادير من أرضها فإن نفسه تنازعه شوقا إليها، إذ المقام بها لا يمل. ويأسف الشاعر كثيرا على انقضاء فترة الإقامة المحددة بتلك البقاع الطاهرة مكنيا عن ذلك بإقلاع مزن قبلي الثواء ففي القاموس هم قبلي مزن الأمر بالإقلاع إذ آذن بالبين والانصراف، فلا يملك ساعتئذ إلا أن يقرأ عليها السلام ويودعها توديعا حارا، مثنيا على الله الذي أنعم عليه بالثواء في أرجائها يقول[2]:

قد دعـا شوق مكـة كل داع ... بطواف الـوداع عنـد الوداع
فوداع المحـبوب للشوق داع ... يتجلـى فـي كـل آن وساع
فوداعـا بطحاء مكة واحيـي ... واسلمـي وانعمي أجـل البقاع
وإذا حـــم نحو شنقيط عـود ... فإليك الـهـوى كثير الدواع
فالثوى فيـــك لا يمـل وإنا ... منك نهـوى لكـل حزن وقاع
مزن قبلـي ذا الثواء لعمري ... هـــم بعـد البعـاع بالإقلاع
بعد مـا كـان قبل ذاك مطلا ... ببطـاح البطحا وفـوق التلاع
فعليك الســـــلام مكـة مني ... ما سعى في مشاعر الحج ساع
ووداعا إلـــــى لقاء سعيد ... لك أم القرى إلـــى الخير داع
ونحمـد الله ذا الجلال على ما ... فيك أولى مـن الثوى المستطاع
ونصلي علـــى شفيع البرايا ... مـــــا سما باتباعه ذو اتباع

---

[1]- المقابلة السابقة.

[2]- المقابلة السابقة.

2- الاستحضار الخالف المحتشم:

ونرمي من ورائه إلى استعراض عدد من القطع الشعرية التي نظمت في مناسك الحج ومقدساته وربما تناولتها عرضا دون أن تخصها بوقفة طويلة مكتفية بذكر بعض الأماكن عاملة على توظيفها ومن أبرز الشعراء الذي اعتمدوا هذا التوجه الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي (ت.1286هـ) الذي خصص مقطعا مطولا من نونيته للكشف عن تعلقه الشديد بالحرمين، متتبعا أماكن الحج ومزاراته، آملا أن تبلغه العيس إلى البيت الحرام ليأمن الخوف والجوع ويلتمس من الحاج ما يريد يقول[1]:

سوى أني استباح حريم صبري ... هوى الحرمين أشرف منزلين
وسوف تقي العزائم والمهارى ... بوعد منجز من وافيين
فقد منيتني قبل المنايا ... مسرور ركائبي بالدهنوين
ينازعن الأعنة سالكات ... ممر الجيش بين العدوتين
تبادر بالحجيج ورود بدر ... ويحدوها الحنين إلى حنين
على باب السلام مسلمات ... لفرط الشوق كل طوى وعين
تناخ لحاجتي دنيا وأخرى ... هناك فتنثني بالحاجتين
ببيت الله ملمس كل حاج ... تعالى الله عن كيف وأين

ونقرأ للرجل مقطعا ضمن بائيته التي يمدح بها والده الشيخ سيديا جاعلا منه حرما آمنا ومكة يحج إليها يقول[2]:

يا سيدي إن فداك الله بي ... جاري لصى ما عنه لي من مذهب
أطنابكم موصولة بطنب ... بحق ذي القربى وحق الجنب
لي فلكم بعد أن يد لي ... وبأبي لو أن غيركم أبي
ووجتي لطكم في القرب ... وقاية من شوكة وعقرب
لا زلتم في الحرم الحجب ... والناس من حرمته في عجب
وأنتم في قطره المرحب ... وعصره في مكة ورحب
يأتيه فل أرب و هرب ... كل أخي مخافة وترب

---

[1]- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: احمد بن الأمين الشنقيطي م.س ص.215 .

[2]- المرجع السابق.ص.407.

ومن الذين انتهجوا هذا السبيل وخصصوا للأماكن المقدسة من نصوصهم حيزا شعريا غير يسيرا محمد فال(ببها) بن محمذن(ت.1344هـ) الذي نظم دالية أكثر ضمنها الشوق والحنين مستعيذا بالله وأسمائه ومقدساته من المكاره،معملا العيس نحو بلاد الحرم، مصرحا بعلو منزلتها،إذ تقاصرت عن رتبها البلاد الأخرى لما خصها الله به من يمن وبركات. وقد عدد الشاعر جملة من هذه المقدسات مؤكدا أنها مهبط الوحي ومبتدأ النبوة حيث تنزل الروح الأمين على قلب الرسول الكريم بالآيات بالبينات يقول[1]:

أدخلت نفسي ومن خاللت من أحد ... في الميم والصاد من لفظ اسمك الصمد
والميم والطاء من لفظ المحيط كم ... أدخلتهم جيب طه مظهر المدد
أدخلتهم جيب أبهى من به سبحت ... شياظم العيس من بطحاء للبلد
وخير من طاف بالبيت العتيق ومن ... وافى المناسك فوق جمرة أجد
وإذ ثوى بالبقاع الطاهرات غدت ... في رتبة لم تكن للثور والأسد
فسل حراء وثورا والخطيم وسل ... سفح الحجون إلى حومانة الكتد
فالاخشبين فغار المرسلات إلى ... خيف المحصب بالبطحاء فالسعد
فيها تردد جبريل الأمين على ... طه الأمين بقول ليس بالفند
فيها الطواسيم والأنعام قد نزلت ... مشيعات بأملاك ذوي عدد
لله لله أيام بها سلفت ... ما إن يرى مثلها في سالف الأبد

ونبلغ إلى الشيخ محمدو بن حنبل(ت1302هـ) الذي خص الشوق إلى الحرم المكي بوقفة ضمن ميميته متخيلا إطلالته الأولى على تلك البلاد مكفكفا دمعه عند رؤية المواقف والمناسك التي حركت كوامن نفسه وأهاجت غرامه،مستعرضا مواطن نزول الوحي، مرتشفا ماء زمزم مستشفيا به، متوجها بعد ذلك إلى المدينة ليقف أمام الروضة الشريفة يقول[2]:

ألا يا عين ليلك لا تنام ... ويومك عارضي صبح السهام
أنوما قبل حفظ الذكر ضبطا ... دعني عند الرضى يا ذم ذام
أنوما قبل أن أقف المطايا ... مع الحجاج في البلد الحرام
وتشرف في الجبل ضحى عليها ... فيأخذ وبل دمعك في انسجام

---

[1]- مريم بنت سيد أحمد: جامعة انواكشوط 1987، ص 36.

[2]- احمد بن اباه: شعر النبويات الموريتانية خلال القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة سيد محمد بن عبد الله، فاس – المغرب –2004، ص 96.

وتبصر مـــولد المختار فيها ... ومرتاد الملائكـــة الكـــرام
وترمـــى فـــي أباطحها بطرف ... وتجـــلس بالحطيم وبالمقـــام
وتشرب مـــاء زمزم ماء بئر ... يكـــون بشربه برء السقـــام
وقبـــل أن ألصق الأحشاء مني ... بأرض المصطفـــي خير الأنـــام
وآتي باب روضته فأدعـــو ... وأهتـــف بالصـــلاة وبالســـلام
وأسكب عـــندها دمعي سروا ... ألا بعض المعـــرة كالغـــرام

ونبلغ إلى احمد سالم بن سيد محمد الابهمي(ت.1405هـ) الذي أفرد الحنين إلى الحرم بأبيات ضمن ميميته النبوية حيث يسلي نفسه بإزماع الرحلة إلى الحرمين عاقدا العزم على بلوغ تلك البقاع ليبرد قلبه بالتردد على المناسك، مستمتعا بالمقام وباستلام الأركان، مستلذا السعي بين الصفا والمروة، متمنيا الإقامة بينهما عسى أن يصيب بعض ما بتلك البقاع من اليمن والبركات يقول[1]:

إذا مـــا أذكت الزفرات قلبي ... أسليه بـــوعد ذي التـــزام
وإنـــي ســـوف أدنيها بعنس ... مـــن العزم المؤيد بانبرام
وطائـــرة تسابـــر فكـــر قلبي ... فتسبقه إلـــى البـــلد الحرام
فأبـــرد حـــر قلبـــي باجتياز ... بتلك الطـــاهرات وباللمام
وأشف الجـــسم منـــي باحتكـــاك ... بتربيتـــها وشـــم النثام
ولرم العـــين فـــي تلك المـــرامي ... وأشفي الروح منـــي بالمقـــام
فرمـــي العيـــن فـــي تلك المرام ... جدير بالمـــروم مـــن المـــرام
ونقضـــي حـــجة بـــراء تقضي ... بحاجـــي وامحا كـــل اجتـــرام
أرى البيت الحـــرام وما حـــواه ... كزمـــزم والخطيم وكالمقـــام
وكالحـــجر المعظـــم انتويـــه ... بتقبيـــل يكـــرر واستـــلام
ومـــروة والصفـــا ومنى مذانا ... بقاع ذات يمـــن واحتـــرام

ب- استلهام المواقف والجمرات:

وفي هذا الجانب نظر الشعراء إلى مقدسات الحج ومواقفه على أنها ملهمات تعين الشاعر على الإبداع، إذ يستطيع أن يوظفها في الخطاب الغزلي والمديحي معتمدا الأساليب

2- مخطوط بحوزتنا.

البلاغية كالتشبيه والاستعارة وغيرها. ويمكن أن نقسم هذا المحور إلى نقطتين أولاهما توظف أماكن الحج توظيفا غزليا، وثانيتهما توظفه توظيفا مدحيا فماذا عنهما؟

1- المقدسات مثل أعلى للغزل

نظرا عدد من الشعراء إلى أماكن الحج ومقدساته على أنها ملهمات تعبيرية تسعف المبدع و تساعده على الإبانة عن همومه الغرامية، فنقرأ في ديون المصطفي بن بوأحمد(ت.1200هـ) المجلسي عدة قطع شعرية يوظف خلالها الأماكن المقدسة توظيفا غزليا ففي إحدى هذه القطع مثلا نرى الشاعر يجرد من نفسه مخاطبا يدعوه إلى استحضار أيام اللهو والصبا مشبها لذتها بالمتعة الإيمانية التي يظفر الحاج بها لحظة تردده بين المشاعر والمزارات وقد جمع الرجل في قطعته بين أماكن الحج ومصطلحاته فأورد في نصه الصفا والمروة والحجون والتلبية ورمي الجمار يقول[1]:

أدر ذكر أيامـــــنا قهوة ... بتِنْيَحي[2] إذ نتخطى النوب

وإذ نحن بين صفا أنسها ... ومروتها في حجون الطرب

نلبي دواعي الهوى كلما ... دعتنا و نرمي جمار الأدب

وفي قطعة ثانية نراه يشبه تهالكه على لثم تربة ربع الحبيبة و منزلها الدارس بتهالك المذنب على لثم الأركان الشريفة، إذ يبذل كل منهما قصارى جهده في الالتصاق بالمكان مستميتا في سبيل ذلك تعبيرا عن المحبة والوفاء يقول[3]:

وبلعرصة البيضاء من سخن منزل ... أفـاض دموع لعين غريا على غرب

وقفت بـــــه أبكي وألثم تربه ... كما لثم الأركان مرتكب الذنب

ونختم هذه النقطة بأبيات لأحد الشعراء الشناقطة اتخذ فيها بعض مناسك الحج مناسبة للتغزل وذلك حينما اختلس النظر إلى إحدى الغانيات لحظة رمي الجمرات ليشير إلى أنها رمت قلبه بنظراتها قبل أن ترمى العقبة بجمراتها يقول[4]:

رب خود نظرت فيها اختلاسا ... عنـــــد رميي لجمرة العقبات

---

[1]- مقابلة من الأستاذ محمد يحي بن سيد احمد بتاريخ 2004/12/02 بانواكشوط

[2]- تنيحي موضع في تاركة يقع على بعد 100 كلم إلى الشمال الشرقي من العاصمة انواكشوط.

[3]- مقابلة مع محمد يحي بن سيد احمد تقدمت.

[4]- محمذن ولد المحبوب: أدب الرحلة في بلاد شنقيط، دبلوم للدراسات العليا، جامعة محمد الخامس 1995. ص.62.

تيمتني لمـــا رأيت صفاها ... وسط غيد حذاءها محـرمات
فرمتني بمقلتيها وظـــنت ... أن قلبي رابـــع الجمـرات

2- المقدسات مثل أعلى للمدح:

عول بعض الشعراء في خطاباتهم المدحية على أماكن الحج بوصفها ملهمات إبداعية تمد الشاعر بجملة من الصور الأدبية وتعينه على استغلال المحسنات البيانية و توظيفها في نصه فنجد الشاعر محمد الولي ابن مينوك التندغي[1] يمتدح سعي اليدالبين[2] منوها بآبارهم جاعلا منها أماكن مقدسة وذلك ضمن تشبيه بليغ يضفي على "تتكدسم"[3] صفات مكة ويسقط على أوادي[4] معالم أحد ويلحق "السبيخات"[5] بيثرب واكثر من ذلك يعلي من قدر سكان هذه الآبار وأهاليها مرتفعا بهم إلى مصاف الصحابة وأولي الفضل يقول[6]:

ألا إن تندكسم مكـــة أرضنا ... وآواد أحد والسبيخات طابـــــة
فأعلام تي أعلام تلك وأهلها ... على ما له من النبي والصحابة

وثمة قطع شعرية أخرى تعمل على توظيف اسم مكة وبعض مصطلحات الحج توظيفا مدحيا يسقط على الممدوح صفات الكرم والبذل على نحو ما نصادف عند محمد الأمين بن الشيخ المعلوم(ت.1363هت) الذي نظم أبياتا جعل فيها ممدوحه كعبة يحج إليها الناس مشبها فضله على نظائره بفضل مكة على البلدان والجمعة على الأيام يقول[7]:

أيا من على الأسرار لا المال يؤتمن ... ويا تارك المأمون للناس والثمن
أعني على أمر تطاول ليله ... عدوي مع البرغوث فيه على سنن
أقاسي عدوي بالنهار وليلتي ... أقاسي بها البرغوث والهم والحزن
ففعلك ماض ليس فيه مضارع ... وأجزم من مهما ولما و إن ولمن
يضاعف ندب الناس فيك وأجرهم ... أيا مكة البلدان يا جمعة الزمن

---

[1]- هو محمد لولي بن احمد بن ميتوط التندغي أديب معاصر أخذ عن محمد سالم بن ألما.

[2]- نسبة إلي إيدوداي و هي قبيلة زاوية لها مكانة علمية وسياسية مرموقة في منطقة التورزة.

[3]- بئر قديمة وهي الآن حي من أحياء بلدية أوليكات بمنطقة التورزة وبها محظرة قائمة.

[4]- هضبة عالية ترى من بعيد وهي بالقرب من تندكسم.

[5]- بئر قديمة وهي الآن حي من أحياء بلدية أوليكات وبها محظرة قرآنية.

[6]- مقابلة مع العالم أحمدو بن حمين بتاريخ 2004/12/06.

[7]- مقابلة مع العالم محمدن الزايد بن ألما بتاريخ: 2004/12/13 انواكشوط.

وفي قطعة أخرى نراه يمتدح الشيخ أحمدو بن بمب مستخدما جملة من مصطلحات الحج جاعلا من ممدوحه كعبة يحج إليها ذوو الحاجات يقول[1]:

إليك والا فالنجائب في تعب ... خديم الذي حلا بحلته كعب
علوت الورى كعبا وحجوك كعبة ... فمن كل واحد يسلون ومن حدب
فللحج ميقات وحجك دائم ... فليس إلى شهري جمادى ولا رجب
قطعت إليك البحر والبحر أنت هو ... وقاطع بحر نحو بحر من العجب

ونجد أحد شعراء القوم غير بعيد من هذا السياق،إذ يقيم مقارنة بين مكة المكرمة وبين مكة أخرى غير مكرمة ضمن بيتين، والواقع أن هذه الأخيرة لا تقارن بالأولى ولا يجمع بينهما إلا أصوات الميم والكاف وهاء الوقف فأهل هذه البلاد الشنقيطية يطلقون على بعض الحبوب الصفراء المعروفة بالذرة اسم مكه في لهجتهم الحسانية. ولا نعلم مما اشتقت هذه التسمية فهل كانت هذه الحبوب الغذائية الصفراء تستجلب من مكة في يوم من الأيام أم هذا مجرد توارد في الوضع واتفاق في التسمية.

ومهما يكن من أمر فإن الشاعر حاول بمهارة أن يقدم موازنة أدبية بين مكة أم القرى، و بين مكه عماد القرى مشيرا إلى أن الناس في أيامه يتسابقون إلى مكه غير المكرمة عماد الدنيا فقط ويهملون مكة المكرمة صلاح الدنيا والأخرى منتهيا إلى أن العاقل من يسعى إليهما جميعا عاملا على اكتساب مكه للقوت الدنيوي بنية وقصد لينال بعض الفضل، وساعيا إلى بلوغ مكة المكرمة ليظفر بالكمال الإيماني والفضل الأخروي.

وفي الأبيات جناس تام بين مكة ومكه والأخرى والأخرى والبيتان هما[2]:

إلى مكة أعني بها الحبة الصفرا ... أرى الناس تسعى لا إلى مكة الأخرى
ففي السعي للأولى لدنيا فضيلة ... وفي السعي للأخرى الفضيلة في الأخرى

ولا ننسى في هذا الصدد مقامة ألفها أحمدو بن التاه بن حمينا اليدالي سماها "المقامة المؤسسة في الرحلة إلى البلاد المقدسة" وقد خصص منها فقرة مطولة لمكة واصفا لحظة بلوغه إليها مذكرا بمكانتها الدينية إذ بها البيت الحرام ومهبط الوحي ومولد النبي صلى الله عليه وسلم

---

[1]- المقابلة السابقة.

[2]- المقابلة السابقة.

يقول:« وبعد انتصاف الليل تراءت أضواء مشبكه فقالوا ألا و إن تلك أضواء بكه فكدنا نطير فرحا بوصول أرض هي أول أرض مس جلد النبي صلى الله عليه وسلم ترابها وسحت عليه من سماء الوحي سحابها وأسري به منها إلى السماء وفتحت له أبوابها وعظم واحترم جنابها بلدة ناموس الرسالة وإرهاصاتها وتبليغ الدعوة و تحمل انعكاساتها»[1].

ثالثا: رحلات حجية:

ننبه هنا إلى أن الرحلة الحجية مثلت لدى الشناقطة مشغلا رئيسا وحاجة ملحاحا استدعتها حياة البدو والارتحال وموقع البعدة والانتباذ، وزادت من وراجها قساوة الطبيعة والتشبث بالعلم والتمسك بالدين، فخرج القوم من أوطانهم يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، أمين البيت الحرام، ملتمسين الاجازات والأسانيد فرجعوا إلى أهليهم بموفور المال ونفيس الكتاب وعالي السند، مدونين تجاربهم العلمية في رحلات حجازية قاربت العشرين[2] وعملوا ضمنها على إبقاء صورة الحرم المكي بالذاكرة الشنقيطية مشرقة مضيئة،فقد تابث هؤلاء الراحلون بأم القرى عاصمة الثقافة والعلم تلبثا غير يسير فنقلوا إلينا جهودهم العلمية من محاورات ومناظرات وتدريس. وبعد النظر في هذه النصوص الحجية أمكننا أن نصنفها تصنيفا منهجيا، يقسم الحضور المكي فيها إلى حقلين معرفيين أولهما يعني بالشعر والأدب وثانيهما يهتم بالفقه والتصوف فماذا عن هذين الحقلين؟.

أ- حقل الأدب والشعر:

وخلال هذا الحقل سنقتصر على الجانب الأدبي في بعض هذه الرحلات بادئين بابن التلاميد التركزي(ت.1323هـ) الذي ألف كتاب "الحماسة السنية الكاملة العزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية" بعد ارتحاله إلى المشرف ليؤدي لمناسك حقها متصلا "بأمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون الذي أكرمه وأحبه لعلمه وطلب منه البقاء عنده فأجاب،وكانت تقع بينه وبين علماء مكة مناظرات ومحاورات علمية في مجلس الأمير(...) وقدم إليه الأمير مرة شرح عاكش اليمني على لامية العرب وطلب منه أن يكتب عليه فكتب حاشيته المعروفة بـ"إحقاق الحق وتبرى العرب مما أحدث عاكش اليمني في لغتهم ولامية العرب."[3] وجاءت رحلة التركزي ديوانا شعريا يكثر فيه الشوق والحنين إلى الحرمين الشريفين كما احتوى أيضا على مناظرات

---

[1]- مقابلة مع العالم أحمدو بن حمين بتاريخ 2004/12/06.

[2]- انظر أدب الرحلة في بلاد شنقيط: محمذن بن المحبوب، أطروحة ماجستير، جامعة محمد الخامس 1995. و د.محمد الظريف: مكة المكرمة في رحلات علماء شنقيط، ندوة الحج الكبرى لعام 1243هـ وزارة الحج – الرياض 2003. ص 150 وما بعدها.

[3]- احمد تيمور: أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، دار الآفاق القاهرة، 2003 ص371.

علمية وألغاز لغوية.ولا ننسى هنا جهود الشيخ في التربية والتدريس بتلك الربوع، فقد لبث ربع قرن وهو بالحجاز يربي الأجيال ويكون الرجال.وذلك ما عبر عنه في نغم من الفخر والاعتزاز كبير يقول[1]:

وقد ربيتهم عشرا وعشرا وخمسا كاملات من سنين
بإطعاميهم والعلم غث سدائف من ذرى علمي السمين
وسقييهم وخمر العلم خل سلافة خمر علمي ذا المعين

وقد عرف له طلبته قدره ومكانته وخاصة أديب الحجاز وشاعرها عبد الجليل برادة الذي امتدحه بأبيات أكد ضمنها أنه محمدة العصر ومفخرة شنقيط يقول[2]:

لئن فخرت شنقيط يوما فبالحري وحق لها بابن التلاميد مفخر
أقول وإني ناصح جد مشفق مقالة صدق أجرها أنتظر
هلم بغاة العلم في سوح طابة إلى العلم عند ابن التلاميد تظفروا

ونجتاز إلى محمد الأمين الشنقيطي الحسني(ت.1351هـ) الذي ارتحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج وألقى عصا التسيار بمكة،وكان من ثمرة ارتحاله أن خلف مذكرات هامة مثلت الوثيقة التي عرفتنا به وقصت علينا من أنباء حياته وتغربه طلبا للكتب وجمعا للحديث.وقد أقام بالحجاز فترة قرأ خلالها على الشيخ احمد سالم بن الحسن الديماني بعض متون الفقه واللغة وأنساب العرب. وظل يراوده حنين دائم إلى التراب والاتراب.وكان هذا الشيخ قد تعرف على الشريف حسين بن علي أيام داسته على ذلك الديماني.ولما ولي هذا الشريف إمارة مكة بادر إلى تهنئته وامتداحه،فألقى بين يديه قصيدة قال إنه استحسنها ومن هذه القصيدة قوله[3]:

سلام أريج المسك من دون نشره وينسى نديم الخمر الصهباء خمره
وينسى من المحبوب وردة خده واجفانه المرضى ودقة خصره
خذوها على علاتها و عليكم سلام أريج المسك من دون نشره

---

[1]- محمد محمود ولد اتلاميد: الحماسة السنية، مصر، 1311، 148/1

[2]- المرجع السابق 150/1.

[3]- عبد اللطيف الدليشي: من أعلام الفكر الإسلامي، م.س ص.80 – 85.

وأكثر من ذلك التقى بالملك عبد العزيز مرة في منزل محمد الشبلي فرحب الملك بالرجل و آثاره برضاه واثنى على علمه وتقاه[1].

وندرج يسيرا على رحلة محمد يحي بن أبوه الموسوي(ت.1349هـ) الذي حدد لظحة خروجه من البلاد باليوم والشهر والسنة،وكان سفره الليلتين خلتا من صفر عام 1347هـ حيث اتجه إلى آدرار بنية الاستراحة في سياحة تمرية سنوية متبعة بتلك البلاد.وهنالك التقى رجلا حديث العهد بالحج فحاوره مستزيدا من حديثه،مبديا رغبته في اتباع سبيله حتى ليمكن القول إن هذه المحاورة كان لها أعظم الأثر في توجيه صاحبنا إلى الحرمين إذ أيقظت في نفسه فكرة الانطلاق إلى الحج،فتحدث عن ذلك قائلا«واجتمعنا بمن هو قريب العهد بالبقاع الطاهرة وحدثنا إنه خرج من هذه الأرض إليها،ولم يلق إلا خيرا فغبطناه أي غبطة و استخبرناه عنها و أنشدناه:

أيا زيد زدني من حديثك إنه حديث عجيب كله وغريب»[2]

فلا شك أن هذه الحادثة كان لها أعمق الأثر في نفس صاحبنا حيث تبدلت عزيمته وعدل عن الرجوع إلى الأهل فأخذ يعد العدة وينتقي الصحب، فصادف ابن عم له وافقه وآزره على عزمه فتعاهدا على الحج سرا و أوصى كل صاحبه بالصبر والتجلد و طفقا يجمعان أمرهما في شيء من التحفظ والسرية متعهدين أنفسهما بمحاورات حجية مثلت بالنسبة إليها غذاء روحيا وباعثا يحمل على التصميم والمصابرة. وكانا مع ذلك يتباطآن رغبة في التخلص من ركبهما وحرصا على الانفصال عنه يقول:«وكنا نستريح بذكر ما نحن عازمون عليه سرا ونتحرى خروج من هنالك من أهلنا خيفة ما يكون من شياطين الإنس»[3] ولما بلغ الرجل إلى أرض الحوض في شرق البلاد أخذ ينادي ربه ملتمسا منه العون على إكمال السفر،أملا في البلوغ إلى أرض الحرمين الشريفين،وحرصا على أداء مناسك الحج ورغبة في زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم متمنيا أن يختم له بالحسنى يقول[4]:

يـا رب إذ بلغتنا الحوض نعمة ولطفا فأدخلنا حمـــــى مكة الأسنى
إلـــى طيبة الغراء دار محمد إمـــام البرايا عين رحمتنا الأسنـــى
إلى حوضه بعد التعمر في غنى إلى الفوز بالمطلوب والختم بالحسنـى

---

[1]- المرجع السابق ص.46.

[2]- انبيرو بنت محمد عبد الرحمن: تحقيق الجزء الثاني من رحلة محمد يحي ولد أبوه، المدرسة العليا للأساتذة 1988. ص.25.

[3]- المرجع السابق ص.26.

[4]- المرجع السابق.ص.24.

وفي أقصى الحوض بالشرق الموريتاني تبدت للرجل مناظر مدينة "باسكنو" لحظة الأصيل فأثارت في نفسه مشاعر الإبداع فأنشأ بيتين يتوسل ضمنهما إلى الله راجيا منه أن يبلغه حمى مكة بعد أن أبلغه ربى باسكنو وقد صاغ ذلك في أسلوب من الجناس طريف يقول[1]:

أقول لقومـــــي إذ رأينا عيشـــة معالم من باسكنو شما عواليـسا

عسى مـــن أرانا هذه بعد بعدها يرينا عوالي مكة والعـــــواليا

ويبرز الجانب الأدبي في رحلة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي المعروف بـــ "آب بن اخطور"(ت.1393هـــ) الذي دون رحلته إلى حج بيت الله الحرام فقد استودعها أدبا كثيرا وفقها فجمعت اللغة إلى الأدب وضمت الفقه إلى علوم القرآن، مستحضرة جملة من نصوص التراث الجاهلي والإسلامي،مقدمة دروسا أدبية اعتمدت في الأساس تحليل قصيدة جرير التي هجا بها الاخطل والتي مطلعها:

بان الخليط ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

وقد ركز الشيخ اهتمامه في الشرح على إبراز معني بيت سئل عنه يقول:«ثم إنا في يوم عرفة مررنا مصادفة من غير قصد على خيمة من خيام الحجيج فيها الأميران الإخوان السامي تركي أمير أبهى، وخالد السديري أمير تبوك فجلسنا في ظل الضحى من خيمتهم فآوونا وأكرمونا غاية الإكرام،وأظهروا السرور بالمعارفة معنا و تذاكرنا معهم مذاكرة أدبية وسألنا الأمير خالد عن معنى قول جرير:

هل تتركن إلى القيسن هجرتكم ومسحهم صلبهم رحمان قربانا

وعن إعراب قربانا من بيت جرير[2].»

وأثناء إقامته بمكة التقى أحد علمائها وجرت بينهما محاورات أدبية طريفة إذ خاطبه ذلك المكي منشدا شعرا لما رأى أشعة الشمس تمتد إليه هو وجماعته من شقوق النافذة يقول:«وفي أيامنا في مكة المكرمة بعد قضاء مناسك الحج دعانا أحد أعيان مكة ومدرس حرمها السيد علوي مالكي يومين متفرقين للغداء عنده ففرح بنا وأكرمنا غاية الإكرام وأظهر السرور بالتعارف معنا .

---

[1]- المرجع السابق.ص.24.

[2]- محمد الأمين الشنقيطي: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، دار بن تيمية، القاهرة، د.ت.ص.238. وقد أجاب الرجل بان هذا البيت أبرز فيه الشاعر ذم الأخطل وقومه مؤكدا أنهم على دين النصرانية إذ يتمسحون بصلبانهم. وقربانا إما بدل من قوله صلبهم أو بدل من رحمان بناء على جواز أن يكون من البدل بدل.

وآنسنا بحديثه وملحه وظرافته.وكان من ظرافته أنا لما قابلنا شعاع الشمس من كوة في بيته تمثل بقول الشاعر:

..... والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا[1]

وبالمقابل أجابه الشيخ على البديهة منشدا شعرا يتمثل بقول الأقدمين يقول:"فتمثلنا بقول الشاعر:

يصد الشمس أني قابلتنا فيحجبها ويأذن للنسيم[2]

وننهي هذا المحور برحلة الشيخ أحمد الحسن بن محمد حامد الحسني الذي جمع رحلاته إلى الحج في كتاب سماه:"اللآلئ المكنونة في الرحلات الميمونة" وقد ضمنه كثيرا من أشعار الشوق والحنين إلى الحرمين فقد نظم في الحرم المكي همزية كشفت عن شاعريته التي تفجرت بمعاينة الكعبة الشريفة واستشعار جمالها وجلالها فطفق يتدفق شعرا يفصح عن روعة البيت الحرام ويثني على الله بما هو أهله ويدعو للحرم بمزيد الشرف والرفعة والعزة متضرعا إلى الله أن يحقق رجاءه يقول[3]:

ألا ذلك البيت العتيق تراءى وشع فراق الناظرين ضياء
وذلك واديه كأن رواءه تلألأ نورا أو ترقرق ماء
إلهي لك الحمد الذي أنت أهله لك الشكر لا نحصي عليك ثناء
فزده جلالا في القلوب وهيبة وعزا وتشريفا وزده بهاء
وزد كل من قد جاء حجا وعمرة إليه على مر الزمان زكاء
سألناك في هذا المقام فكم به قد أجزلت فضلا للوفود حباء

وظلت مشاعر الحج حاضرة في ذهن الشاعر توحي إليه بديع القول ورفيع البيان،ففي لحظة وقوفه بعرفات فاضت نفسه بقريض فريد مصرحا أن مشهد عرفات مشهد مثير تتنزل خلاله الرحمات وتشرق الأنوار والبركات،وتسيل عبرات التوبة ودموعها وترق من الخشية النفوس والقلوب،وختم الشاعر أبياته متضرعا إلى الله أن يبلغه المراد من آماله ورغباته يقول[4]:

---

[1] – المرجع السابق والصفحة.

[2]– المرجع السابق والصفحة.

[3]– أحمد الحسن بن محمد حامد: اللآلئ المكنونة في الرحلات الميمونة، مرقون 187/1.

[4]– المرجع السابق 2/ ص.146.

لك الحمد إذ أشهدتنا عرفات ... لك الشكر يا ذا الجود والنفحات
قمت أرى في الكون أحسن منظرا ... كيوم وقوف الناس في عرفات
وقد أشرقت أنواره وتلألأت ... وهب نسيم اليمن والبركات
وحنت إلى الخير القلوب نوازعا ... وفاضت عيون الجمع بالعبرات
ومدت إلى الله الأيدي وأقبلت ... إليه جميع اللسن بالدعوات
وقد شهدوا في ذلك الوقت مالهم ... يفيض به الوادي من الرحمات
وبان حجاب النفس حتى كأنهم ... لما استغفروا من هيبة وخشاة
يرون رسول الله بين ظهورهم ... به تقف القصواء بالصخرات
إلهي بلغنا بذا الموقف المنى ... وحقق لنا الآمال والرغبات
للحق وفقنا وسدد إلى الهدى ... وقفو سبيل الأقوم الخطوات
وصل على خير العباد مسلما ... بعد سكون الكون والحركات

2- حقل الفقه والتصوف:

وضمن هذا الحقل سنورد نماذج من المضامين الفقهية لبعض هذه الرحلات مركزين على صلتها بالحرم المكي،بادئين بجهود كمال الدين محمذن بن حبيب الله المجيدري(ت.1204هـ) الذي تلبث بكل من مصر والحجاز مدرسا فبقيت صورته هنالك مشرقة وضاءة تسطع بكل الأقطار التي مر بها وذلك ما أوضحه تلميذه محمد عبد الله ولد البخاري(ت.1318هـ) بقوله:«وأخبار شيخنا محمذن بن حبيب الله المجيدري مشهورة من أرضنا إلى المغرب إلى افريقية(تونس)إلى مصر إلى مكة إلى المدينة وإن تتبعت أثره لم تجد موضعا إلا وله فيه تلميذ،وقل مصر مر به إلا وسلم له أهله فأعجبهم من عالم وولي»[1] وعن مكانته بالحجاز نكتفي بالقول انه تتلمذ عليه بعض العلماء هنالك واستمرت مراسلاتهم تصل إليه بعد عودته إلى بلاده وقد صاغ تلميذه المامون بن محمذن الصوفي(ت.1325هـ) هذه المكانة شعرا منوها بمستوى شيخه المعرفي داعيا إلى استنطاق بقاع يثرب وبطاح أم القرى عن فتوة المجيدري وتأثيره العلمي حيث ظلت مسطورات المكيين والمدنيين تبلغ إليه ورسائلهم نحوه تترى يقول[2]:

سل المدينة والبطحـــاء أي فتى ... يخبرك من فيهما من عالم وولي
هل كان يدعى كمـــــل الدين بينهما ... لو كان في المدن إلا غاية المثل
هذي رسائلهم يسعـــــى بها أبدا ... مـــــن كان حج لبيت الله ذا قفل

---

[1]- محمد عبد الله ولد البخاري: كتاب العمران(مخطوط)

[2]- المخطوط السابق.

ونصل إلى محمد يحي الولاتي(ت.1330هـ) الذي ألف رحلة ظهرت مطبوعة تحت عنوان "الرحلة الحجازية" وقد مر الرجل خلال رحلته بالبلاد المغاربية لينتهي إلى الحجاز مسجلا وقفاته بالعواصم الثقافية محاورا العلماء منطلقا في مناسك حجه التي تتبعها تتبعا دقيقا جعل جزء كبيرا من رحلته أقرب ما يكون إلى مرشد للمعتمر ودليل للحاج،إذ أورد ضمن هذه الرحلة الأدعية المأثورة في الحج، موضحا الأدعية الخاصة بكل موقف ومكان، متحريا الدقة، ففي عرفات حاول أن يقف بالمكان الذي وقف به رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:«وصعدنا عرفة حتى نزلنا قرب الصخرات المعروفة المفروشة أسفل جبل الرحمة وهي الصخرات التي وقف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته،نزلنا قريبا منها جدا في وقت اشتداد الضحى فبنينا قبابنا.»[1] وقد استودع الرجل في رحلته فتاوى كثيرة غير أنه في مكة لم يصدر أي فتوى ولم يدرس بحرمها مرجئا ذلك إلى إقامته بالمدينة حيث درس متون الحديث والبلاغة والأصول يقول:«ودرسنا مدة إقامتنا بالحرم الشريف موطأ مالك رضي الله عنه وعقود الجماني للسيوطي وورقات إمام الحرمين»[2]

وندرج في هذا الحقل رحلة البشير بن امباريكي التي ضمنها الكثير من آداب السفر وفقه الحج وهي منظومة استفتحها ببراعة استهلال لطيفة تثني على الله بما هو أهله، وتصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم منتهية إلى تحديد موضوع الرحلة التي جاءت استجابة لطلب بعض الإخوان.وقد شفع الناظم ذلك بتعبير يؤكد تعلقه الشديد بالحرمين إذ جد في ارتحاله نحوهما فوق الطوق وامتلأت نفسه بالشوق. ولما بلغ إلى مكة تنسمت له بساحتها رياح اليمن والبركة فانشرح منه الصدر واطمأن القلب وزال والاعياء والتعب يقول[3]:

الحمـــد لله الذي قـــد جـــعل	فـــي أرضنا لما نريد السبلا
صلـــى على محمـــد ذي الكـــرم	ما أمت الحجاج أرض الحـــرم
وآلـــــه وصحـــبه الأسيـــاد	ما جال ذو الهمة فـــي البـــلاد
وبعـــــد ذا فإننـــي دعانـــي	ملتمسا بعض مـــن الإخوان
أرجوزة طيبة فـــي الأنيـــن	حاوية رحلتنا للحـــــرمين
سرنا نجـــد السير فوق الطوق	قلوبنـــــا مشغوفة بالشوق

---

[1]- الولاتي: الرحلة الحجازية، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي،ط1 1990، ص 171.

[2]- المرجع السابق، ص 196.

[3]- مخطوط بحوزتنا.

ونختم هذا المحور بوقفة محمد حبيب الله بن مايابا الجكني(ت.1363هـ) الذي بلغ الحضور المكي في جهوده مستوى عاليا فقد ألقى بالحرمين عصا التسيار.ونفع الله بعلمه تلك البقاع،فمكث هنالك متعبدا ومؤلفا حينا ومحاورا العلماء أهل الفضل أحيانا أخرى.وذلك ما أوضحه أحد طلبته ممن كتب حياته يقول:«وقد حج بعد حجة الفرض سبع مرات واعتمر مرارا واعتكف في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وجاور بالمدينة المنورة سبع سنين وأزيد منها بالمسجد الحرام، ولقي كثيرا من أعيان العلماء والأولياء الكبار فصحبهم في غربته في الحرمين الشريفين[1]»فكان بذلك على صلة وثيقة بعلماء الحرمين الشريفين والمفتين فيهما فنوهوا بقدره وعلمه امتدحوا كتبه فقد قرظ كتابه إضاءة الحالك من دليل السالك خمسة من أئمة الفتوى والتدريس في الحرم المكي وحده ومن أمثلة ذلك ما كتبه السيد عبد الله الحنسي الإدريسي منوها بذلك الكتاب معليا من قدره يقول:«الحمد لله وحده والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه وبعد: فقد اطلع الأمر برقم هذه الحروف على نظم العلامة محمد حبيب الله بن مايابا المسمى بدليل السالك إلى موطأ الإمام مالك المخصوص لإثبات صحة حجة أحاديث موطأ إمامه الأعظم عالم المدينة فوجدته نظما لطيفا منسجما محتويا على أدلة قوية كافية في إثبات مقصده وهو أن الموطأ غير نازل عن مرتبة الصحيحين، بل هو مماثل لهما،بل هو مقدم عليها بالسبق كيف لا ومؤلفه إمام السنة شيخ الأئمة(..) ولا شك أن هذه الرسالة المنظومة الجميلة حرية بأن يعنى بها ويظهر ذكرها بطبعها حتى يعم نفعها.»[2]

خاتمة

وفي المنتهى نقول إن مكة المكرمة صفوة البلدان، وسيدة البقاع، وأم القرى فهي عاصمة الثقافة والعلم، وجامعة السعد واليمن، إذ بها منسك الحج، وقبلة الناس، ومهبط الوحي، وإليها مهوى الأفئدة ومحط الأنظار ومنتهى القصد. مما هيأ لها في الأذهان المسلمة حضورا مبينا جعلها تتردد على الألسنة والحناجر، وتنطبع في الأدمغة والعقول.ولم يكن حظ الشناقطة من هذا الحضور يسيرا فقد اختطوا لهذا البلد من ذاكرتهم حيزا كبيرا، فطفقوا يرتجلون الشعر في التنويه به، ويرحلون العيس نحوه رسيما وإليه حنينا، منشئين أبناءهم على محبته وتعظيمه، فكانوا يعلمونهم معالمه ومحاسنه كما يعلمونهم السورة من القرآن، مرددين على مسامعهم فضله ونبله

---

[1]– محمد حبيب الله بن مايابا: زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، إحياء التراث العربي، بيروت، ص 552.

[2]– محمد حبيب الله بن مايابا: إضاءة الحالك من دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1995. ص.201.

لاحتضانه البيت الحرام وميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ومبعثه ومنطلق هجرته معتبرين ذلك من تمام الإيمان وكماله.

ولم يكتفوا في هذا الصدد بمجرد الضرب في الأرض ونظم القريض بل أبدعوا تجاربهم الحجازية في نفس لطيف يشيد بالبقاع الطاهرة ويهيب بالشناقطة الذين أقاموا بتلك الربوع ينشرون العلم والمعرفة ويعلمون الناس الكتابة والحكمة، فتعانقت في نصوصهم رحلات الحج بمدونات القريض فنظروا إلى مكة على أنها مستشفى للآثام والذنوب، وتبراس للأفئدة والقلوب، ومفتاح للفضائل والأخلاق وينبوع ثر لإنكاء المحبة الإلهية بالصدور والأعماق، ومؤتمر عالمي للحجاج من مختلف العوالم والآفاق.